ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

مقالات

سفراء فرنسيون في المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي
أدوارهم في صياغة السياسة الاستعمارية الفرنسية

محمد العواد
أستاذ التعليم العالي مساعد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر – المملكة المغربية

مُلَخّصْ
وظفت فرنسا عدة آليات من أجل فرض هيمنتها على المغرب، ومن ذلك آلية الامتيازات الأجنبية والتي حصلت بموجبها فرنسا على عدة امتيازات تجارية وقضائية بالمغرب. وهناك أيضًا آلية المعاهدات والمؤتمرات الدولية حيث انتزع الساسة الفرنسيون عدة معاهدات من المخزن المغربي وعقدوا عدة مؤتمرات للضغط عليه. ومن آليات السياسة الفرنسية أيضًا آلية الإصلاحات، فقد عملت فرنسا على فرض إصلاحات على المغرب، أو إفشال تلك المحاولات الإصلاحية الجادة التي حاول المخزن المغربي القيام بها. كما لجأت فرنسا إلى سياسة الحملات الحروب من أجل التوغل في المغرب واحتلال أجزاء من ترابه. ويُعَدّ الجهاز الدبلوماسي حجر الزاوية بالنسبة للإمبريالية الفرنسية تجاه المغرب. فقد عرف المغرب ضغطاً دبلوماسيًا خطيراً لعب فيه السفراء والقناصل دورًا محوريًا. فقد هدفت الدبلوماسية الفرنسية الانفراد بالمغرب خصوصًا وأنها كانت على اطلاع واسع بنقط ضعفه وذلك منذ احتلال فرنسا للجزائر. وفي هذا الإطار وظفت فرنسا عددًا مهمًا من الدبلوماسيين للضغط على المخزن المغربي إما من أجل الحصول على امتيازات تجارية أو قضائية عن طريق عقد عدة معاهدات، وإما بالضغط على السلاطين المغاربة لكي يتراجعوا عن مد يد المساعدة للجزائر أو من أجل افتكاك الأسرى.

بيانات المقال:
تاريخ استلام المقال: ٠٦ مايو ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٣٠ أغسطس ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
تاريخ الدبلوماسية، الدبلوماسي الفرنسي، القناصلة الأوربيون، المخزن المغربي، الإمبريالية الفرنسية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047319

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
محمد العواد. "سفراء فرنسيون في المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي: أدوارهم في صياغة السياسة الاستعمارية الفرنسية".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص١١٤ – ١٢١ .

مُقَدِّمَةٌ
يُعَدّ السفراء الفرنسيون حجر الزاوية بالنسبة للسياسة الاستعمارية الفرنسية تجاه المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فقد اعتمدت فرنسا على نخبة من السفراء استطاعت بواسطتهم التعرف على مكامن ضعف المخزن المغربي من جهة، وإعداد السياسات المناسبة للتدخل في المغرب من جهة أخرى. ولتحقيق تلك الأهداف عمل الساسة الفرنسيون على تكوين دبلوماسيهم المتوجهين إلى المغرب حتى يكونوا على دراية تامة بالمهام المنوطة بهم. كان الحضور الدبلوماسي الفرنسي صدى للأحداث التي عاشتها فرنسا داخل أوربا، وللأوضاع التي أصبح يتخبط فيها المخزن المغربي. وتبعا لهذا تعددت الأدوار الدبلوماسية التي لعبها السفراء الفرنسيون بالمغرب، ففي البداية عمل هؤلاء السفراء على إيجاد موطئ قدم لفرنسا دون توتير الأوضاع بين الحكومة الفرنسية والمغرب، لكن سرعان ما أصبح الجهاز الدبلوماسي الفرنسي فيما بعد يؤثر في قرارات المخزن المغربي.

تسعى هذه الدراسة إلى تتبع الأدوار التي قام بها السفراء والمثلون الدبلوماسيون الفرنسيون في المغرب والتي تبرز ضمنيا التطور الذي عرفته السياسة الاستعمارية الفرنسية تجاه هذا البلد، بدءا بنهج سفراء فرنسا لسياسة "سلمية" سعت إلى الحصول على العديد من الامتيازات، وانتهاء بممارسة ضغوط عسكرية واقتصادية قوية تمكنت من خلالها فرنسا من احتلال المغرب واستكمال مشروعها الاستعماري بشمال إفريقيا.

فمَنْ هم أهم السفراء الفرنسيون الذين وظفتهم فرنسا في المغرب لتمرير سياستها الاستعمارية، وما هي الأدوار التي أدّاها هؤلاء السفراء، وهل حقق الجهاز الدبلوماسي الفرنسي الأهداف الاستعمارية الفرنسية في المغرب؟

أولاً: مفهوم الآلية الدبلوماسية

ترتبط السياسة الخارجية بالاختيارات الاستراتيجية والسياسية من طرف أعلى هيئة سياسية في الدولة. ففي فرنسا ارتبطت هذه السياسة بالملوك ووزراء الشؤون الخارجية، بينما تعد الدبلوماسية هي التطبيق الفعلي للسياسة الخارجية وذلك بواسطة الدبلوماسيين المفوضين. وفي هذا الصدد فإن البعثة الدبلوماسية تضم مجموعة من الأشخاص المفوضين من طرف دولة معينة يرأسها سفير وتقوم بمهامها الدبلوماسية داخل الدولة التي تم تفويضها بداخلها. وعلى العموم فمن مهام الهيئة الدبلوماسية تمثيل الدولة التي تبعث بها، وحماية مصالحها، والتفاوض مع الدولة التي هي منتدبة بداخلها، وأخيرا وهذا هو الأهم إيصال الأخبار بواسطة كل الوسائل إلى الدولة التي تمثلها عن كل الأحداث التي تجري بالدولة التي تشتغل بها.

ويبقى السؤال المطروح هنا، هو هل يقتصر دور الدبلوماسي على ما يتم إمداده به من أوامر، أم أنه يتجاوز ذلك فيوظف قدراته الخاصة ليمرر سياسات ترتبط إلى هذا الحد أو ذاك بتكوينه أو خلفية معينة تطابق أو تخالف السياسة المنوط له تطبيقها، وبصيغة أخرى عندما نتحدث عن الدبلوماسية الفرنسية هل نكون بصدد الحديث عن دور مؤسسات أم دور أشخاص؟

إن لكلمة (Ambassadeur) مدلولاً يرتبط بواقع أوربا، أي بمؤسسات الدبلوماسية في الدولة الأوربية الحديثة، لقد ظهرت كتابات في أوربا عن السفراء والسفارة منذ القرن السادس عشر الميلادي، حيث ألف مجموعة من السفراء مذكراتهم حاولوا فيها إبراز أهمية المؤسسة الدبلوماسية في العلاقات الدولية. إن السفارة في أوربا مؤسسة واضحة المعالم تتميز بالاستمرارية وبالسهر على رعاية مصالح الدولة التي تمثلها وتعمل على تقويتها، عكس السفارة في المدلول المغربي فهي عمل مؤقت وهي مهمة ذات هدف واحد(١). لقد كانت فرنسا غالبًا ما تعين سفراءها من أوساط الشخصيات التي تنتمي بأفكارها إلى فرنسا "القديمة" L'ancienne France وليس إلى الليبراليين، لقد كان التعيين غالبا من أوساط الأرستوقراطيين ويرجع ذلك إلى كون هؤلاء يمتلكون ثروة خاصة قد يوظفونها في العلاقات الدبلوماسية وذلك لكون أجور السفراء الفرنسيين غالبا ما كانت لا تكفي(٢).

إن شخصية السفير وكذا المسؤول الوزاري غالبًا ما تؤثر في الاستراتيجية الدبلوماسية، حيث تكون السياسة الدبلوماسية أكثر نجاعة عندما يكون هناك تفاهم بين المسؤولين الدبلوماسيين. وكمثال على ذلك الوزير "ديلكاسيه" Delcassé (١٨٩٨-١٩٠٥) والذي كان على تفاهم تام مع سفرائه "كامبون" Cambon و "باريير" Barrère و "بامبار" Bompard(٣). ففي الفترة الممتدة مابين (١٨٧١-١٩١٤) كان اتخاذ قرار على مستوى السياسة الخارجية يصدر عن مجموعة صغيرة من الموظفين المدنيين والعسكريين، فإلى حدود ١٩١٥ لم يكن لمجلس الشيوخ الفرنسي لجنة الشؤون الخارجية، حيث كانت الاتفاقيات تدرس من طرف لجان الجمارك أو لجان المستعمرات.(٤)

لقد أسس "بوتمي" E.Boutmy المدرسة الحرة للعلوم السياسية سنة ١٨٧٢ والتي تكفلت بإعداد الدبلوماسيين وتلقينهم كل المعارف حتى يكونوا على دراية بالمهام المنوطة بهم خاصة بالعالم الإسلامي. كما تم تحديد دور العسكريين أيضا في الميدان الدبلوماسي، فمساهمة هؤلاء لم تقتصر على التعرف على أسلحة الدولة التي يوجدون بها، بل يمكن لهم أيضا أن يلعبوا دورًا دبلوماسيا ويمكن أن يعين بعضهم سفيرًا.(٥)

نلاحظ إذن مدى تشابك الآلية الدبلوماسية الفرنسية ومدى تنوع المتدخلين في تفعيل هذه الآلية. ولهذا يعد الجهاز الدبلوماسي بمعناه العام حجر الزاوية في السياسة الفرنسية تجاه المغرب، فقد لعب السفراء والقناصل دورا مهما في إمداد فرنسا بالتقارير الكفيلة برصد مكامن القوة والضعف بالمغرب. لقد كان الحضور الدبلوماسي الفرنسي صدى للأحداث التي تعيشها فرنسا في أوربا من جهة، وللأحداث التي يتخبط فيها المخزن المغربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي من جهة أخرى. فما هي أهم ملامح الآلية الدبلوماسية قبل هذه الفترة؟ وكيف كان الحضور الدبلوماسي؟ وما هي اهتمامات هذا الجهاز وهل حقق مبتغاه؟

ثانيًا: الجهاز الدبلوماسي الفرنسي في المغرب قبل القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي

لقد تعددت الأدوار الدبلوماسية التي لعبها ممثلوا فرنسا. وكغيره من البلدان الإسلامية كان المغرب تحت عيون الدبلوماسية الفرنسية. أورد "جاك كايي" J.Caille أهم السفراء الفرنسيين الذين كانوا يقيمون بطنجة وهم من سنركز عليهم دونما الحديث عن باقي الترسانة الدبلوماسية التي كانت مبثوثة في مختلف الموانئ المغربية. لقد مثل مصالح فرنسا خلال

القرن ١٦م خمس دبلوماسيين وهم:"بيتون كولونيل بيير" Piton Colonel Pierre de (1533) و"جان باكلون" Pacquelon Jean (1543) و"مانفور" Montfort (1559) و"بوردو روبير" Bordot Robert (1561) وأخيرًا " ليستيل أرنو" Lisle (Arnoult de) (1606-1607).(٦)

أما خلال القرن السابع عشر الميلادي، فقد كان هؤلاء السفراء هم:

"فابر جاك" Fabre Jaques (1614-1616) و "كابان روبير دو بونفاس"(1617) Cabanes Robert de Boniface و"دوماس كلود" Du Mas Claude (1619) و"رزلي شوفالي إسحاق" Razilly Chevalier Isaac و"موليغ" Molères (1631) و"كابرون أنطوان" Cabiron Antoine (1634) و"دوشلاغ بريام" Du Chalard Priam (1635) و"لابار أنطوان دو فيبغ" La Barre Antoine de Febre (1681) و"سانت أمان فرانسوا" Saint-Amans François (1682) وأخيرًا "سانت ألون فرانسوا بيدو" Saint-Olon François Pidou (1693).(٧)

نلاحظ أن أهم المبعوثين كانوا أكثر عددًا خلال القرن السابع عشر الميلادي حيث وصل عددهم إلى (٨) ممثلين دبلوماسيين، في حين كان عددهم خلال القرن السادس عشر الميلادي (٥) ممثلين فقط، وفي القرن الثامن عشر والرابع والقرن التاسع عشر الميلادي (٣) ممثلين دبلوماسيين، مما يطرح سؤالاً عن سبب إرسال فرنسا لمبعوثيها بكثرة خلال القرن السابع عشر الميلادي؟ ألا يكون ذلك راجعًا إلى القلاقل التي كان يعيشها المغرب آنذاك ورغبة فرنسا في الحفاظ على مصالحها وبالتالي ربطها لعدة علاقات سواء مع السلطة الشرعية التي يمثلها السلطان أو مع باقي الكيانات السياسية الأخرى التي ظهرت في المغرب خلال الفترة نفسها. إن أغلب مهام هؤلاء الدبلوماسيين باختلاف أنواعهم كانت تتمحور خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي حول الحصول على امتيازات تجارية وضمان تحرك السفن الفرنسية بحرية بالسواحل المغربية، ومن جهة أخرى افتكاك الأسرى الفرنسيين وكان هذا هو الغالب.

هذا باختصار أهم ما يمكن قوله عن التحرك الدبلوماسي الفرنسي تجاه المغرب قبل الفترة المدروسة، هذا التحرك الذي ولاشك لم يكن منعزلاً عما لحقه خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، فأهداف الامبريالية الفرنسية واحدة رغم اختلاف آليات تنفيذها. فمن هم أعضاء الجهاز الدبلوماسي؟ وما هي المهام التي أنيطت بهم خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين؟ وكيف ساهمت الآلية الدبلوماسية في تفعيل السياسة الاستعمارية الفرنسية تجاه المغرب؟

ثالثًا: أعضاء الجهاز الدبلوماسي ومهامهم خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي

عرف المغرب ضغطًا دبلوماسيًا خطيرًا لعب فيه السفراء والقناصل دورًا محوريًا، وما تسارع عمل الآلية الدبلوماسية الفرنسية بالمغرب إلا دليل على رغبة فرنسا في الإنفراد بهذا البلد الذي كانت على اطلاع واسع بنقط ضعفه وذلك منذ احتلالها للجزائر. يقول أحمد بن خالد الناصري راصدًا ملامح تطور السياسة الفرنسية تجاه المغرب أواخر القرن التاسع عشر الميلادي "... وأعلم أيضًا أن أمر هؤلاء الفرنج في هذه السنين قد علا منكرًا وظهر ظهورًا لا كفاء له، وأسرعت أحواله في التقدم والزيادة إسراعًا متضاعفًا... وعاقبة ذلك وغايته عند الله تعالى المنفرد بالغيب"(٨).

ظل القناصلة الأوربيين نشيطين في مدينة طنجة حتى مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، وهي وضعية شاذة كانت تحرج العلاقات الفردية مع المخزن حيث بقي الممثلون بعيدين عما يجري في داخل المغرب، ولم تكن بريطانيا تمثل إلا في اثنين من أهم المرافئ في هذا البلد، ونفس الوضعية بالنسبة للقنصل العام لفرنسا مع إضافة وكالتين له بكل من الجديدة والرباط. لم يكن عمل الدبلوماسية الفرنسية بالمغرب يتم في ظروف كتلك التي رغبت فيها فرنسا، فالمغرب أيضا ضم قوى أجنبية نافست بحدة الساسة الفرنسيين، ولعل بريطانيا هي أكبر منافس للمشروعات الفرنسية في المغرب خاصةً وفي شمال إفريقيا عامة.

يقول كاتب الدولة في الحكومة البريطانية المكلف بالشؤون الداخلية وشؤون المستعمرات "بورتلاند" Portland في رسالة وجهها إلى "ماترا" Matra ممثل بريطانيا لدى السلطان المغربي مولاي سليمان (١٧٩٢-١٨٢٢) بطنجة "... إن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الفرنسيين يفكرون في بعض المشاريع العدوانية تجاه بلدان شمال إفريقيا، بأمل أن يكسبهم ذلك قوة إضافية تمكنهم من بلوغ هدفهم المتمثل في غزو مصر... لهذا فإنني أحتكم بصفة خاصة على مراقبة التحركات الفرنسية في تلك الجهة (طنجة) بكل ما يقتضي ذلك من يقظة، وعند إبلاغ سلطان المغرب بخطورة هذه الأطماع، عليك انتهاز الفرصة لفضح سياسة المخادعة والتحايل المتبعة من طرف الفرنسيين وتقوية مكانتنا عنده"(٩).

لم يمنع كل هذا من أن توظف فرنسا عددًا مهمًا من الدبلوماسيين للضغط على المخزن المغربي إما من أجل الحصول على امتيازات تجارية أو قضائية، عن طريق معاهدات و إما

بالضغط على السلاطين المغاربة لكي يتراجعوا عن مد يد المساعدة للجزائر أو افتكاك الأسرى.

٣/١-"أندري ري" (Rey André (1733-1736

كان من تجار مارسيليا استقر بسلا منذ أمد، وقد تم تكليفه سنة ١٧٣٣ من طرف الوزير "موربلس" Maurepas للتفاوض مع السلطان مولاي عبد الله من أجل تحرير بعض الأسرى الفرنسيين وفي نفس الوقت تحضير الأجواء لقدوم أحد السفراء الفرنسيين الذي أتى في مهمة تدور حول توقيع اتفاقية مع المغرب. بعدما مكث ثلاثة أشهر في مكناس، زوده السلطان برسالة إلى لويس الخامس عشر (١٧١٥-١٧٧٤) يشترط عليه فيها أن يزوده بالبارود إن أراد أن يطلق سراح أسراه، وبعد تردد طويل أرسلت فرنسا موافقتها في الوقت الذي عزل فيه مولاي عبد الله[١٠]. وقد عاد Rey إلى سلا سنة ١٧٣٧ ممارسًا لبعض الأنشطة التجارية، وقد أرسل إليه Maurepas رسالة يجعله من خلالها مشرفًا على كل التجار الفرنسيين.[١١]

٣/٢-"جان جاك سالفا" Salva (Jean-Jacques) 1761- 1767

يعتبر أيضًا من بين تجار مارسيليا، قام السلطان سيدي محمد بن عبد الله (١٧٥٧-١٧٩٠) باستدعائه لقصره في سنة ١٧٦٤ من أجل أن يناقش معه عقد السلم مع فرنسا، وما يفسر هذا هو أنه في نفس السنة أكد (Le Duc de Praslin) "دوق دو بغاسلين" وزير الشؤون الخارجية على عهد لويس الخامس عشر، على (Salva) بأن يتفاوض مع السلطان حول عقد معاهدة جديدة بين المغرب وفرنسا. ورغم إظهار السلطان رغبته في السلم إلا أنه اقترح إرسال سفير للتفاوض في الأمر، وبعد إقرار السلم بين البلدين تلقى (Salva) مكافئة على أعماله تقدر ب ١٧٠٠ جنيه[١٢]. يبدو أن الجهاز الدبلوماسي خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، كان ينهج سياسة المرونة واللين بغية الحصول على موطئ قدم له بالمغرب، فكانت مطالبه ذات صبغة تجارية أو افتكاك الأسرى، ولم يقحم الدبلوماسيون الفرنسيون أنفسهم لحدود تلك الفترة في أمور تتعلق بالسيادة المغربية أو التأثير على قرارات المخزن المغربي.

٣/٣-"كونت دو برينيو بيير أنديتو" Breugnon (Pierre Handéneau, Comte de)

يُعَدّ "برينيو" قائدًا عامًا للسلاح الملكي على عهد لويس الخامس عشر، أرسل إلى المغرب سنة ١٧٦٧ بمثابة سفير لفرنسا، وذلك من أجل عقد اتفاقية مع المغرب هذه الاتفاقية التي كان قد مهد لها فيما قبل (Salva)، حيث بعد بضعة أيام من التفاوض تمكن "برينيو" من التوقيع على اتفاقية -تم تحضيرها بقصر فرساي- في ٢٨ ماي ١٧٦٧.

مكنت هذه الاتفاقية فرنسا من ترتيب أوراقها وإحكام قبضتها بالتدريج على شؤونها بالمغرب وذلك بعد قطيعة وتوقف منذ ١٧١٨، والأخطر في هذه الاتفاقية أنها تضمنت بنودا هي الأولى من نوعها التي مست بالسيادة المغربية خصوصا سيادة السلطان على رعاياه[١٣]. وعقب توقيع هذه الاتفاقية تم تعيين "لويس دو شينيي" Louis de Chénier قنصلا لفرنسا بالمغرب، وباشرت فرنسا حماية مصالحها التجارية في المغرب وحماية السفن الفرنسية من تهديد قراصنة سلا وتطوان والعرائش[١٤]. إن توقيع معاهدة خلال تلك الفترة لم يكن بالأمر الهين وذلك بالنظر إلى طبيعة العلاقة بين "دار الحرب" و"دار الإسلام"، وكذلك بالنظر إلى اشتداد المنافسة الأجنبية حول المغرب، فآلية المعاهدات رغم طابعها السلمي هي الباب الوحيد الذي كان بالإمكان لفرنسا أن تدخل منه، ولكي توقع معاهدة يجب أن يكون لديها جهازًا دبلوماسيًا بارعًا.

عندما اعتلى نابليون بونابارت (١٨٠٤-١٨١٤) عرش فرنسا أصبحت الدبلوماسية الفرنسية أكثر ضراوة بالمغرب، نظرًا للأوضاع التي كان يعرفها المتوسط من صراع مرير بين فرنسا وإنجلترا. لقد كان احتلال بلاد المغارب يمثل عند نابليون ضرورة إستراتيجية ترمي إلى بسط السيطرة الفرنسية على البحر المتوسط وانتزاع السيادة فيه من يد بريطانيا، ولهذا الهدف أرسل نابليون الضابط "بوتان" Boutin في شهر يوليوز ١٨٠٨ إلى الجزائر ليقدم له دراسة مفصلة عن مراكز الدفاع والتحصينات الإستراتيجية للمنطقة، وقد استفادت فرنسا من تقرير الضابط المذكور سنة ١٨٣٠. كما أرسل نابليون "دومينيكو باديا ليبيليش" (Dominigo Badia y Libilich) إلى المغرب الأقصى سنة ١٨٠١ ، والذي استقر بطنجة لمدة طويلة تحت إسم مستعار وهو "علي العباسي"، حيث كان يحسن التكلم باللغة العربية، وقد قدم تقريرًا مدعمًا بالخرائط عن المغرب وظروفه وحدوده وتحصيناته وعقلية أهله، وأشار على نابليون بأن المغاربة يمكن أن ينهزموا في البحر ولكنه شكك في انهزامهم برًا.[١٥] بهذه الضغوط الدبلوماسية كان نابليون يطمح إلى عزل المغرب عن إنجلترا باقتراح مساعدته من أجل تحرير الثغور المحتلة، لكن نابليون سرعان ما أرسل الضابط الفرنسي"بوريل" (Burel) يهدد بمهاجمة المغرب إذا لم يوقف دعمه للإنجليز.

٣/٤-"كابتان أنطوان بوريل" Burel (Capitaine- Antoine) 1808

لقد حمل "بوريل" سنة ١٨٠٨ رسالة من نابليون إلى السلطان المولى سليمان (١٧٩٢-١٨٢٢) وقد كانت فرنسا تطمح من وراء هذه البعثة إلى الحد من التأثير البريطاني المتزايد في أوساط المخزن المغربي، وفي الوقت نفسه الحصول على

معلومات بخصوص الوضعية العسكرية للمغرب[١٦]. ورغم ضغوط "بوريل" فإن السلطان أكد بأن تعامله مع الفرنسيين لن يخرج عن نفس نمط تعامله مع الإنجليز[١٧]. ورغم ذلك فقد عاد "بوريل" إلى فرنسا وهو يحمل تقريرًا مفصلاً عن أوضاع المغرب في محاولة لاستثمار ذلك عندما تفكر فرنسا في شن حملة على هذا البلد[١٨].

٣/٥-"كولونيل أوفري كيوم" Auvray (Colonel Guillaume) 1830

ففي إطار تداعيات احتلال فرنسا للجزائر تم إرسال Auvray من طرف الجنرال "كلوزيل" (Clauzel) قائدًا لجيش إفريقيا بالجزائر، لكي يقدم للسلطان المولى عبد الرحمن (١٨٢٢-١٨٥٩) إنذارا مضمنه أن يسحب المغرب جيشه من تلمسان[١٩]، وأن يسلم الأمير مولاي علي إلى وهران وأن يقوم المغرب بأداء تعويضات عن الخسائر الناجمة عن تدخله[٢٠]. رفض عامل طنجة أن يوجه إنذار الجنرال إلى السلطان وعاد Auvray إلى الجزائر في يناير ١٨٣١، في الوقت الذي قام فيه ممثل الحكومة الفرنسية "شارل دومورنيي" بمهمة مماثلة بطنجة مواصلاً مساعيه بصبر لدى المخزن[٢١].

٣/٦-"كونت شارل دو مورني" Mornay (Comte Charles de) 1832

قدم إلى المغرب في ٢٢ مارس ١٨٣٢ بخصوص الوجود المغربي بتلمسان وتم استقباله من طرف السلطان بمكناس، وقد أخذ المبعوث الفرنسي وعدا بتحرير الأسرى الفرنسيين وإنهاء احتلال تلمسان.[٢٢] إن الأهم من ذلك هو كون "مورنيي" قد جاء لمهمة سرية أخرى وهي إحصاء القوة العسكرية المغربية، الأمر الذي قام به على أحسن وجه، حيث استطاع أن يحصل على معلومات عن وضعية أهم الأقاليم المغربية الأمر الذي مكنه من وضع تقرير حول "الحالة العسكرية للأقاليم والمدن الساحلية وبعض المدن الرئيسة والقبائل الكبرى بالمناطق الداخلية للمغرب سنة ١٨٣٢".[٢٣]

لقد تضمن التقرير إحصائيات ومعلومات غاية في الدقة، من المؤكد أنه تم توظيفها بعد معركة إيسلي والدخول الفعلي للفرنسيين للمغرب، فقد ذكر "مورنيي" أهم المدن وما تضمنته من عتاد حربي فجاءت الإحصائيات على الشكل التالي:

- تطوان: (١٠٠) فارس و(١٠٠) مكلف بالمدفعية.
- طنجة: حصن واحد و(١٠٠) مدفع و(٢٠٠) فارس و(٧٠٠) جندي.
- العرائش: حامية واحدة تضم ٥٠٠ رجل موزعين على الشكل التالي: (٣٠٠) فارس و(١٠٠) مكلفين بالمدفعية و(١٠٠) من المشاة.
- المهدية: حامية واحدة تضم (٤٠) رجل و(١٦) قطعة مدفعية.
- سلا: حامية من (٨٠٠) رجل و(١) مركب Goélette حربي مسلح.
- الرباط: (٣٠) إلى (٤٠) مدفع.
- الدار البيضاء: (٢٠) مكلف بالمدفعية و(١٠٠) فارس.
- مازغان: (١٠٠) مكلف بالمدفعية.
- آسفي: (١٠٠) فارس و(١٠٠) من المشاة والمكلفين بالمدفعية.
- موكادور: برج واحد بالجزيرة القريبة من المدينة لحماية الميناء و(١٠٠) قطعة مدفعية[٢٤].

وقد أكد السفير على الأهمية التجارية التي تحظى بها موكادور، وأن السيطرة عليها يعد بمثابة ضربة قاضية لتجارة البلد، والواقع أن ما أشار إليه السفير هو ما وقع بالفعل وذلك عندما تم قصف مدينة الصويرة بعد معركة إيسلي من طرف "جوان فيل" Joinville سنة ١٨٤٤. ويضيف التقرير بأن المغرب جهز حوالي (١٠) موانئ تضم حوالي ١٠.٠٠٠ رجل، و(٥٠٠) مدفع، كما أن للسلطان المغربي احتياطات بالمدن الداخلية، تتلخص في: ٩٠٠٠ رجل و٥٠ قطعة مدفعية بفاس، و ١٢.٠٠٠ رجل و٤٠ مدفع بمكناس ثم ٤٥٠٠ رجل بمراكش[٢٥]. لم يغب عن ذهن السفير "دومورنيي" الحديث عن أهمية القبائل المغربية ومجالات تأثيرها، وعلى الخصوص قبائل الشمال والجهة الشرقية والتي اعتبرت بأنها تشكل خطرا على فرنسا بالجزائر، وقد خلص السفير بأن أكبر عدد يمكن للسلطان جمعه في حرب من حروبه هو ١٠٠.٠٠٠ رجل[٢٦].

إن احتلال المغرب ما هو إلا جزء من مخطط عام حضره الساسة الفرنسيون لإنشاء إمبراطورية فرنسية بشمال إفريقيا، هذا المخطط الذي عبرنا عنه بالسياسة الفرنسية التي وظفت مختلف الآليات في سبيل تنفيذ مشروعها الاستعماري الذي كان يحمل شعاره كل الساسة الفرنسيين.

٣/٧-"ليوتنان كولونيل فريدريك دو لاروا" La Rue (Lieutenant-Colonel Frédéric de) 1836

لقد قدم "دولاروا" إلى المغرب لكي يحتج لدى المخزن على المساعدات التي يتلقاها الأمير عبد القادر من المغرب حيث تفاوض مع السلطان المغربي الذي أقره بسيادة فرنسا على الجزائر وبأن يلتزم الحياد تجاه الأمير عبد القادر[٢٧]. ومن بين من وظفهم الجهاز الدبلوماسي الفرنسي من أجل الحصول على معلومات تخص المغرب خلال تلك الفترة الضابط والدبلوماسي الفرنسي (Léon Roches) "ليون روش".[٢٨] ألحق "ليون

روش" في ماي ١٨٤٥ بالسفارة الفرنسية في طنجة ليعمل على إقناع السلطان بالمصادقة على اتفاقية للامغنية المضاة في ١٨ مارس من نفس السنة، فعمل جهده واستغل موهبته ومعرفته باللغة العربية وعادات المغاربة لحمل السلطان ووزرائه وعماله على التعاون مع فرنسا. وقد ساهمت ضغوطه في موافقة السلطان على اتفاقية الحدود، عندها حولت القنصلية العامة بطنجة إلى بعثة دبلوماسية وعين "ليون روش" سكرتيرا بها حيث أصبح اسمه يذكر في المراسلات التي جرت بين السلطان مولاي عبد الرحمن ووزيره محمد بن إدريس، وبين ملك فرنسا وحكومته ودبلوماسيه المعتمدين في المغرب[٢٩].

نلاحظ إذن كيف تطور دور الدبلوماسيين الفرنسيين على اختلاف مشاربهم وأصبحوا يكيدون للمغرب بمختلف الطرق، ولم يعد يكفيهم ويكفي الساسة الفرنسيين ما حصلوا عليه من امتيازات تجارية عن طريق المعاهدات التي وقعوها، بل أصبح الحديث عن احتلال مناطق من المغرب، وهناك عامل آخر ساهم في تطور عمل الهيئة الدبلوماسية الفرنسية بالمغرب، وهو منافسة الجهاز الدبلوماسي البريطاني في شخص "جون دراموند هاي" John Drummond Hay .

من بين الساسة الفرنسيين الذين اجتهدوا في تطبيق سياسة فرنسا بالمغرب، الوزير المفوض بطنجة "أورديكا" Ordega الذي عين منذ ١٨٨١، وامتاز بسياسة احتضان أصحاب الطرق الصوفية أولهم شريف وزان. عندما اجتمع "أورديكا" ب "دراموند هاي" في نهاية مارس ١٨٨٣ أكد له بأن احتلال فرنسا لفكيك قد لا يضر بالمصالح البريطانية، لكن "هاي" أكد بأن ما ستأخذه فرنسا بالمغرب سيفتح الباب واسعا أمام القوى الأجنبية التي ستطالب بنفس الأمر الذي سيؤثر فعلا على المصالح البريطانية بالمنطقة[٣٠]. لقد ذهب "أورديكا" إلى حد التهديد باحتلال المغرب، وذلك عندما أبلغ "دراموند هاي" بأن نفوذ السلطان بدأ يتضعضع وبأن فرنسا لن تصبر على الفوضى التي تشهدها البلاد، وأكد له بأنه يجب أن تقوم بريطانيا بفرض سيطرتها على المغرب لكي يتمكن الفرنسيون الموجودون بالجزائر من أن يتعاملوا مع أشخاص موثوق بهم، وإن لم يحدث هذا فلن تتردد فرنسا في بسط سيطرتها على ممتلكات السلطان[٣١]. لقد كان سلوك "أورديكا" يتميز بعدم الحذر وعدم الرزانة، فقد تميز كدبلوماسي فرنسي بالمغرب بالشدة وتنفيذ سياسة قد فاقت في أحيان عدة ما كانت تطمح له فرنسا على الأقل خلال تلك الفترة، وبعد المغرب ذهب لممارسة مهامه ببوخاريست بعدما خلق فرصا عديدة من التوتر داخل المغرب.

لقد اضطرت فرنسا أن تغير سياستها تجاه المغرب، حيث اعتمدت على سياسة التقرب من أصحاب القرار واختارت لذلك "شارل فيرو" Charles Féraud الذي عين وزيرا مفوضا لفرنسا بالمغرب ما بين (١٨٨٤-١٨٨٨) خلفا ل "أورديكا"، وقد عمل "فيرو" على الدمج بين التغلغل السياسي والتغلغل الاقتصادي. لقد تقلد "فيرو" عدة مهام ويعد من أهم من تعرف على عادات المسلمين ودينهم وتكلم اللغة العربية، وتعد مهمته إلى فاس من أهم البعثات التي جنت منها فرنسا امتيازات مهمة في وقت حرج ازدادت فيه شراسة الدول الأجنبية المنافسة لها في المغرب.

ومن بين القوى الأجنبية التي ظهرت على الساحة المغربية ألمانيا التي حاول "ديلكاسيه" من قبل جس نبض ساستها بخصوص طموحاتهم بالمغرب، ورغم الجهود التي بذلها الدبلوماسيون الفرنسيون في سبيل أن تمكن ألمانيا فرنسا من المغرب، فإنهم كانوا على علم بأن عقدة المسألة المغربية توجد في لندن، وبأن الحل الذي سيضمن حياد بريطانيا تجاه المغرب هو التنازل لها على مصر وهو الأمر الذي نص عليه فيما بعد الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤.

إن آخر الدبلوماسيين الذين يمكن الحديث عن دورهم، هو "سان روني طايانديي" Saint René Taillandier الذي تقلد منصب الوزير المفوض بطنجة مكان "ريفوال" Revoil الذي تولى منصب الوالي العام بالجزائر. وبعدما احتلت فرنسا الواحات كثرت مشاكل الحدود بين الطرفين مما جعل فرنسا تحتج وتنذر المغرب من مغبة هذه المسألة، ففي ٢٨ مارس ١٩٠١ سلم الوزير المفوض في طنجة Taillandier تحذيرا للمخزن حول هجمات القبائل المغربية على القوافل الفرنسية نحو الواحات وقد حمل التحذير المسؤولية مباشرة للمخزن ومما جاء فيه "... إن الحكومة الفرنسية تلفت مرة أخرى انتباه جلالة السلطان إلى خطورة هذا الموقف، وإن الحكومة الفرنسية قد أوضحت أن لا مطمح لها في الأراضي المعترف بأنها مغربية حسب معاهدة ١٨٤٥..."[٣٢].

خَاتِمَةٌ

إذا تتبعنا للأدوار التي قام بها هؤلاء السفراء والممثلون الدبلوماسيون الفرنسيون، نلمس من خلاله التطور الذي عرفته السياسة الفرنسية تجاه المغرب بدء بالمطالبة بامتيازات تجارية على عهد السلطان محمد بن عبد الله (١٧٥٧- ١٧٩٢)، وزمن السفير "برينيو"، إلى مرحلة أصبحت تغازل فيها فرنسا المجالات المغربية وتهدد Ordiga و"أورديكا" Taillandier باحتلالها على عهد "تاياندي".

عرف المغرب إذن تحركا مكثفا للآلية الدبلوماسية زاد من حدته وتنوعه خوف فرنسا من ضياع مصالحها في المغرب خاصة وأن فرنسا لم تجن بعد ثمارها كليًا خصوصًا وأنها تحلم بإنشاء إمبراطورية فرنسية بشمال إفريقيا، هذه الإمبراطورية التي كانت إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر الميلادي بعيدة التحقق.

اتبع الجهاز الدبلوماسي الفرنسي بالمغرب في البداية سياسة مرنة وذلك من أجل الحفاظ على مصالح فرنسا بهذا البلد، خصوصا أمام منافسة بريطانيا. فكانت مطالب فرنسا تركز على ما هو تجاري أو ما تعلق بقضية الأسرى. بعد ذلك أقحم الدبلوماسيون أنفسهم في أمور تتعلق بالسيادة المغربية بل وأثروا في قرارات المخزن المغربي.

استطاع الدبلوماسيون الفرنسيون انتزاع العديد من الامتيازات التجارية والقضائية، بل وتمكنوا من كشف مكامن الضعف التي كان يعاني منها المغرب سواء على المستوى الاقتصادي أو العسكري أو الإداري. الأمر الذي مهد الطريق أمام الإمبريالية الفرنسية بهذا البلد.

الهَوامِشُ:

(١) عبد المجيد القدوري، **سفراء مغاربة في أوربا ١٦١٠-١٩٢٢، في الوعي بالتفاوت**، منشورات كلية الآداب، ط١، الرباط، ١٩٩٥، ص٨-٩.

(2) René Girault, **Diplomatie européenne et impérialismes**, Masson, Paris, New York, Barcelone, Milan, 1979, pp. 13-14.

(3) René Girault, **Op.Cit**, p.16.

(4) **Ibid**. p.18.

(5) **Ibid**., pp.20-21.

(6) J.Caille"Ambassadeurs-envoyes Particuliers et représentants Officieux de la France au Maroc", In **Héspéris**, T. 3-4, PP. 355-361.

(7) J.Caille, "Ambassadeurs...", PP.157-360.

(٨) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، البيضاء، ١٩٥٦، ج٩، ص ٢٠٩.

(٩) محمد المنصور، "**الجهود المغربية من أجل استرجاع مدينة سبتة في عهد مولاي سليمان**"، مجلة كلية الآداب، الرباط، العدد ٥-٦، ١٩٧٩، ص ٣٠.

(١٠) وفيما بعد (سنة ١٧٣٦) قدم Rey إلى المغرب صحبة العديد من رجال الدين الفرنسيين، لكنه بقي لمدة تفوق الشهر على ساحل سلا، وعندما لم يعط له ترخيص بالقدوم إلى مكناس عاد أدراجه إلى فرنسا، يُنظر:
J.Caille, "Ambassadeurs"..., P.360.

(11) **Ibid**., p.360.

(12) **Ibid**., p.360.

(١٣) لقد أسست هذه الاتفاقية لنظام الحمايات القنصلية بالمغرب الذي عانى من تبعاته المخزن المغربي بشكل كبير.

(١٤) Pierre de Cenival, "la Mission de Louis Chénier, Consul de France à Salé 1767-1782", In **Héspéris**, T.8, 1929, pp.23-35.

(١٥) للإشارة فقد أدى "باديا" مهمة مشابهة قبل ذلك لبلاده، وقد قدم مشروعه إلى Godoy رئيس الحكومة الإسبانية المعروف بأمير السلم. وقد هيأ "باديا" الظروف ل "أنطوان بوريل" الذي حل بالمغرب سنة ١٨٠٨، ودون معلومات عسكرية غاية في الدقة. يُنظر: إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة للنشر والتوزيع، ط٢، البيضاء، ج٣، ١٩٩٤، ص ١٦٧.
J.L.Miège, **le Maroc et L'Europe** , La Porte, Rabat 1989, T.2, p.19.

(١٦) لقد تخرج "أنطوان بوريل" من البوليتكنيك وساهم في حروب نابليون بإيطاليا ومصر وهولندا، وقد أعد تقريرًا مفصلاً عن المغرب يرصد فيه أهم مكونات الجيش المغربي آنذاك. يُنظر: إبراهيم حركات، **المغرب**...، ج.٣، ص ١٥٥.

(17) J.Caille," Ambassadeurs"..., p.362.

(١٨) لقد كثر الحديث في أوساط المخزن المغربي خلال تلك الفترة حول إمكانية شن نابليون لحملة على المغرب كتلك التي شنها على مصر، وقد لعبت الدعاية البريطانية في ذلك دورًا كبيرًا.

(١٩) على إثر احتلال فرنسا للتراب الجزائري، قدم وفد من أهل تلمسان راغبين في أن يبايعوا المولى عبد الرحمن وأن يعين من ينوب عنه، وبعد استفتاء العلماء تم رفض الأمر، لكن إلحاح هذه القبائل جعل السلطان يرسل مولاي علي بن مولاي سليمان للنيابة عنه بالمنطقة وأصطحب معه ٥٠٠ جندي، هذا الأمر الذي لم يرق للفرنسيين. يُنظر: خالد بن أحمد الناصري، **الاستقصا**...، ج.٩، ص ٢٧-٣١. إبراهيم حركات، **المغرب**...، ج.٣، ص ١٨٨-١٨٩.

(٢٠) J.Caille, "Ambassadeurs"..., P.362.

(٢١) وبفعل تطور الأحداث بالجزائر وتوتر العلاقات بين الإدارة المغربية في تلمسان وبعض القبائل، تم سحب الإدارة المغربية سنة ١٨٣٢. ينظر: إبراهيم حركات، **المغرب**...، ج.٣، ص ١٨٩-١٩٠.

(22) Jean Ganiage, **Histoire Contemporain du Maghreb de 1830 à nos Jours**, Fayard, 1994, p.323. J.Caille, "Ambassadeurs"..., p.362.

عثمان المنصوري، **العلاقات المغربية - البرتغالية ١٧٩٠- ١٨٤٤**، مطبعة فضالة، المحمدية، ٢٠٠٥، ج١، ص ٧٥.

(23) Ahmed Farouk, "Les Forces Marocaines Pouvaient-elles inquiéter la France Lors de la Prise d'Alger", In **Hésperis Tamuda**, Vol 28, 1990, Pp.47-63.

(24) Ahmed Farouk, "Les Forces"..., pp.47-63.

(25) Ibid., pp.47-63.

(26) Ibid., pp.47-63.

(27) J.Caille," Ambassadeurs"..., p.362.

(٢٨) التحق "ليون روش" بالجزائر سنة ١٨٣٢ حيث كان والده من المعمرين فيها، فتعلم العربية وعين ضابطًا مترجمًا، وفي سنة ١٨٣٧ التحق بمعسكر الأمير عبد القادر، فتظاهر بالإسلام وسمى نفسه "عمر ولد روش" وزوجه الأمير بامرأة مسلمة وجعله أمين سره الخاص، ولما استأنف الأمير عبد القادر المقاومة ضد فرنسا تخلى "ليون روش" عنه سنة ١٨٣٩ والتحق بالجزائر العاصمة وكلفته الحكومة الفرنسية بعدة مهام في القيروان والقاهرة ومكة، كما حضر معركة إيسلي. يُنظر: **الوثائق**، المجموعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٦، ص ١٨.

(٢٩) نفسه، ص ١٨.

(٣٠) خالد بن الصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (١٨٥٦-١٨٨٦)**، منشورات كلية الآداب، ط٢، الرباط، ص٣٤٥-٣٤٦.

(٣١) روجرز، **تاريخ العلاقات المغربية-الإنجليزية**، ترجمة يونان لبيب رزق، دار الثقافة، ط١، ١٩٨١، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(32) Jacques Caille, **La Petite Histoire du Maroc, T.3, (1852-1912)**, Librairie Farairre, Céré, 1954, p.116.